

هل خلع الحجاب الشاه؟

في اليوم التالي لعودة الخميني، سار معمم مقرب منه يدعى خلخالي، برفقة شبان يقودون الجرافات، نحو ضريح رضا بهلوي في طهران وحولوه إلى ركام، وقيل إن ابنه محمد بهلوي فقد القدرة على الوقوف على قدميه في مشفاه بالقاهرة منذ لحظة سماعه ذلك النبأ. لقب مؤسس إيران الحديثة بـ"رضا شاه كبير"، فقد وصل هذا الجندي غير المتعلم إلى الحكم سنة 1925، وبدأ في انتشار بلاد الغارقة في الفقر والجهل والفساد، نتيجة غياب حكومة مركزية قوية، فقاد عملية إصلاح واسعة بدعم الجيش الذي أعاد تنظيمه، وأنشأ شبكة طرق حديثة وسكك حديدية، وسارع من وتيرة التصنيع، وافتتح المدارس والجامعات، وسمح للمرأة بالتعليم، وأرسل البعثات الدراسية إلى الخارج. ومع هذا، فقد استبد بالحكم، وارتطم بالشرعية. وإذا كان الخطأ الأول مفهوماً عند تأسيس دولة من الصفر تقريباً، خصوصاً إذا كانت تركة التخلف ثقيلة.. وإذا كان الناس يتحملون ذلك ما دامت عجلة الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي تدور وتدر عليهم تنمية ومعيشة.. وإذا كان مزاجهم يهضم فكرة وجود ملك يحكم بنفسه، فلم يكن لخطئه الثاني أي مبرر. كان رجال الدين يضعون أيديهم على التعليم والقضاء قبل مجيئه، إضافة لصلاحياتهم الدينية الواسعة، خصوصاً في المذهب الشيعي، فأنهى رضا شاه سيطرتهم على التعليم، وأبعدهم عن القضاء، لكنه لم يكتف بتقليل أظافرهم، إذ فرض خلع الحجاب، وأصبح سفور المرأة شرطاً لدخولها الفضاء العام. بعد 16 عاماً من الحكم، تعرضت بلاده لغزو سوفياتي وبريطاني مزدوج، وأجبر على التنازل عن العرش لابنه. ورغم أن الشاه الجديد، محمد رضا بهلوي، أكمل مسيرة والده التنموية، وتحالف مع الغرب، فإنه لم ينتبه إلى حشرة الأرض التي تسلت إلى العرش الذي ورثه، وكانت كالسلاح بيد بعض رجال الدين، وكان الحجاب الأساس الذي بنوا عليه فكرة كراهية الأسرة البهلوية للإسلام، واعتبروا قرار حظر الحجاب بداية للغزو الثقافي، وانتهاكاً للعفة والطهارة.. الخ، وأصبح رجل الدين الذي همسه رضا شاه، يتستر بالحجاب، ويتباكى عليه، ثم يسدد طعناته. صحيح أن رضا شاه توقف عند هذا الحد تقريباً، فيما اعتبر معاداة منه للإسلام، وأغلب الظن أنه لم يكن معادياً وإنما يسعى إلى تحرير المرأة الإيرانية التي كانت "مركونة على الرف"، إلا أنه لم يفتن إلى أن الحجاب هوية المرأة المسلمة، وركيزة من ركائز زيتها التقليدي المتوارث، لدرجة أن آلاف الأسر، خصوصاً في الجنوب، تركوا مواطنهم فراراً بدينهم. ورغم أن ابنه خفف من القيود على الحجاب، لكن لم يكن بوسعه إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، بل إنه زاد في مظاهر "التغريب"، وزادت الأسلحة في يد خصومه. ولا يمكن تقييم فترة حكم رضا شاه هكذا، ولا الربط السطحي بين الحجاب والثورة "الإسلامية" التي قامت ضد ابنه بعد 40 سنة من حضره، لكن لا يمكن تجاهل الثغرة التي أحدثها رضا شاه في حكمه بلا داع، والتي ربما ساهمت في التعجيل بإسقاط أسرته، وجعلت الناس ينفذون من حول ابنه، ويسيروا خلف خلخالي لهدم ضريحه. * نُشر بجريدة "الاتحاد"